أنتروبولوجيا التحرر
بين فرانز فانون وهربرت ماركيوز

بعنون حدة
– جامعة البويرة–

الملخّص: بالنسبة لفانون وماركيوز التبعية (الاستعمار والخضوع)، ليست عوامل خارجية بقدر ماهي سيكولوجية، سنحاول في هذا البحث أن ندرس هذا البعد السيكولوجي للسيطرة والخضوع من خلال أعمال هذين المفكرين. ففانون نقد المجتمع الإفريقي تحت النظام الاستعماري واعتبر إنهاء الاستعمار هو رد فعل عنيف يغيّر طبيعة المجتمع الجديد تغييرا جذريا. فإنهاء الاستعمار يؤدي إلى ميلاد التاريخ الجديد للإنسان الإفريقي. ماركيوز نقد المجتمع الأوربي الذي فقد البعد العقلاني النقدي، والذي تحول إلى مجتمع استهلاكي ذو بعد واحد.

Abstract : For Fanon Frantz and Marcuse Herbert the dependence is not an external phenomena as it was psychological, in the present essay, we

try to study this dimension in the works of this tow thinkers. Fanon critiqued the African society under the colonial system and consider the decolonization as a violent phenomena it changes outright nature of a new emerging society, the decolonization gave birth to a new history of the African man. Marcuse criticized the European society which has lost the critical imension, and reduced to the one –dimensional consumer society.

The necessity of bigining a new history of the new man for THE THIRD WORLD and EUROPE.

FANON: try to discover the man behind the new colonialism, he tries to invent a new history of African society.

MARCUSE: seeks genuine European man, he wants to reinstall the rational and critical dimension What European man lost since the technology development that resulted in the installation of totalitarian systems.

Anthropology, liberation Frantz Fanon, Herbert Marcuse technological domination, colonial domination, the one-dimensional man .

مقدمة:

يعد هذا البحث محاولة تجمع بين المنظور الماركسي والمنظور الأنتروبولوجي للإنسان لأن الماركسية في حقيقتها رؤية اقتصادية – سياسية اجتماعية تسعى إلى تغيير أحوال المجتمع وتحسينها وهذا عن طريق ذلك الصراع الطبقي الذي يدير عجلة التاريخ والذي يمكّن البروليتاريا من استرجاع إنسانيتها الضائعة وذاتيتها المغتربة، والأنتروبولوجيا التي هي أساسا دراسة تهدف إلى فهم طبيعة المجتمع البشري بمجمل تفاصيله وعلاقاته ببقية الطبيعة. وبربط الماركسية بالأنتروبولوجيا نسعى إلى تقديم دراسة تتقصى طريق ذلك الإنسان الذي لم يستسلم رغم أنه فقد إنسانيته وجّرد من ماهيته، ذلك الإنسان الذي أراد أن يصبح إنسانا في خضم العملية التي يحرر بها نفسه كما صرح به فانون.

ولقد أكد ماركس على أن الفلاسفة اقتصروا على تفسير العالم، ولكن الأمر المهم هو تغييره، من هنا يمكن أن نعتبر الماركسية كنقطة تحول في تاريخ الفكر الفلسفي لأنها لمتكتف بتفسير العالم،بل حاولت أن تتعرف على الوسائل التي يمكن أن تحدث تغييرا فيه.من هذه المقولة الشهيرة يمكن أن ننفذ إلى قلب الماركسية لأن هذه الأخيرة ليست مجرد نظرية تجاوزها الزمن،بل هي نظرية مطواعة يمكن الاعتماد عليها في تفسير ظروف القرن العشرين.

انطلاقا من تأمل الواقع المادي استطاع كارل ماركس KARL MARX أن يصوغ نظرية

نقدية ثاقبة حول ذلك الصراع الدامي بين الطبقة الكادحةوطبقة رؤوس الأموال والذي عرفه التاريخ طوال القرن التاسع عشر،إذ دعا من خلال هذه النظرية إلى ضرورة استرجاع الطبقة الكادحة لكرامتها الضائعة ولإنسانيتها المغتربة بيدها عن طريق الثورة العنيفة على الأوضاع السائدة من أجل تغيير علاقات الإنتاج وقواه . وجاءت الثورة البلشفية لتعبّر أحسن تعبير عن ذلك الرفض العظيم الذي قاده أولئك الذين تشبعوا بأفكار ماركس وأرائه النقدية. ولكن التجربة الماركسية السوفياتية خيّبت فيما بعد كل الآمال التي بعثها ماركس في نفوس الطبقة المحرومة والبشرية جمعاء، إذ عجزت الماركسية في هذا البلد عن تحقيق المساواة والسعادة للجميع مما جعل لينين LININE يعيد النظر في النظرية النقدية الاجتماعية التي قدمها ماركس، حيث اكتشف أن هناك قشرة أرستقراطية على سطح الطبقة العاملة اشترتها الطبقة البورجوازية لتجعل منها سندا لها،ولكن هذه الظاهرة حسبه عرضية سرعان ما تزول والواقع أثبت عكس ذلك،إذ ما اعتبره لينين عرضيا أضحى ثابتا وهذا ما أكده ماركيوزفي كتابه "إنسان البعد الواحد" الذي أصدرهفي عام1964م.

أما فرانز فانون (1925–1961م) فحاول من جهته أن يعيد اكتشاف قوانين التاريخ في كتابه"معذبو الأرض"الذي أصدره عام 1961م، وهو الكتاب الذي يعكس صورة إنسان البلدان المتخلفة اقتصاديا، فاعتبر طبقة الفلاحين التي تمثل الطبقة المحرومة والمقهورةوالتي انتزعت منها أراضيها كطبقة طليعية أساسية للثورة،فالفلاح في المجتمع المستعمَر بالنسبة لفانون هو: "...العنصر الانضباطي الذي يظل بنيانه الاجتماعي قائما على التواصل بين أفراد الجماعة وعلى ارتباط بعضها ببعض ارتباطا قويا..."[1]فرغم وجود بعض الصراعات القبلية القائمة على العصبية إلا أن الجماهير الريفية حسب فانون تبقى انضباطية تتصف بالغيرية.

من خلال هذه العبارة يتضح لنا أن فانون أشار إلى أمر هام وهو أن الجماهير الريفية أدركت جيدا أن تحررها وانعتاقها لا يتحقق إلا بالعنف،والقضية الأساسية بالنسبة إليهم هي: قضية استرجاع الأراضي من المستعمرين وهذا الأمر لا يتحقق إلا بطريقة واحدة هي:الكفاح الوطني والعنف الثوري.

حاول فانون في كتابه "معذبو الأرض" أن يؤسس نظرية فلسفية اجتماعية يدعو من خلالهاالشعوب المعوزة الفقيرة إلى مواصلة العمل الثوري التغييري إلى غاية تحررهامن عبودية الشعوب المستعمِرة التي أبت أن تعترف بوجودها ككيان مستقل.

إن الدارس لمشروع فانون النقدي من خلال كتبه المختلفة بداية من محاولته الأولى التي حملت عنوان:"بشرة سوداء وأقنعة بيضاء"،"العام الخامس من الثورة الجزائرية"إلى كتابه الأخير "معذبو

الأرض"سيجد أن فانون قام بتعرية النزعة العنصرية القائمة على التمييز العرقي وقال في ذلك: "أنا لست موجود هنا . الآن،مغلق على تشيّئي،أنا وجدت من أجل أن أكون هناك (...) أطالب بالاعتراف بنشاطي النافي على أنني أهتم بأشياء أخرى غير حياتي وأحارب من أجل ميلاد عالم إنساني أي عالم الاعتراف المتبادل..." [2]فالمشكلة الأساسية بالنسبة للإنسان الأسود حسب فانون تتعلق بعلاقته بالإنسان الأبيض، فالانحطاط والدونية والبذاءة وكل هذه الصفات الأخلاقية المنحطة التي اختلقها الأبيض للأسود، تؤثر سلبا على نشاطه العقلي وتعمل على تنميط شخصيته.

لقد حاول فانون في كتابه الأول أن يبين الأضرار النفسية التي تسببها الممارسات العرقية على الإنسان الأسود أو المستعمر والمضطهد،وهذا من خلال دراسات أجراها على مرضى من كلا الطرفين وقد أوضح هذا جيدا خاصة في الصفحات الأخيرة من كتابه: "معذبو الأرض"،كما حلل أيضا البنى الاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات المتخلفة والمتطورة على السواء من منظور ماركسي، إذ أبرز أن الاستعمار أولا و قبل كل شيء هو إسقاط (نفي) الصفة الإنسانية عن الشعوب المستعمَرة وتحويلها إلى أشياء،لذا أكد على ضرورة القيام بعمل تغييري وقال في ذلك:"إن المستعمَر يصبح إنسانا في خضم العملية التي يحرر بها نفسه ..." [3]

أما ماركيوز الذي ينتمي إلى المدرسة النقدية الاجتماعية فحاول من خلال كتابه "إنسان البعد الواحد" ومن خلال كتاباته اللاحقة أن يعكس صورة إنسان البلدان المتقدمة صناعيا،حيث قدم لنا صورة جديدة من صور الاغتراب والتشيؤ المتخفيان وراء ستار العقلنة التكنولوجية وهذا من خلال تعريته للبنية الأخلاقية المسيرة لهذا المجتمع.

لقد وافق ماركيوز سيجموند فرويد في قوله أن "تاريخ الإنسان هو تاريخ قمعه..."[4]وأن جل المجتمعات عرفت عبر تاريخها الطويل حقبا مختلفة من السيطرة والطغيان والقمع ولكن المجتمع الصناعي الحديث ،برع في إخضاع أفراده وحقق في ذلك ما لم تحققه الأنظمة التوتاليتارية القديمة حيث استطاع هذا النظام التكنوقراطي أن يضفي على سيطرته طابعا عقليا أسقط عنه مسبقا كل احتمال حدوث ثورة أو معارضة أو رفض.

فهذا النظام التكنوقراطي خدر أفراده بمنوم تحقيق الرفاهية والسعادة للجميع ولجأ في ذلك إلى سد كل حاجياته و تغطية كل متطلباتهم، مما جعل الثورة على مثل هذا النظام الذي يثبت جدارته باستمرار مستحيلة وكل من يدعو إليها مجنون لابد له من مسكن ليهدأ أعصابه فهذا النظام هو الأول الذي نجح في اختزال الإنسان حسب ماركيوز إلى بعد واحد هو:البعد الحيواني الذي يظهر في

الاستهلاك، التكاثر وغياب البعد الناقد والرافض الذي يتلفظ كلمة "لا" في وجه النظام القائم.

حاول جورج طرابيشي في المقدمة التي استهل بها ترجمته لكتاب ماركيوز" L'Homme unidimensionnel" أن يجري مقارنة بسيطة بين الفانونية والماركوزية وأشار إلى بعض النقاط التي تجمع بين الرؤيتين النقديتين كما أشار إلى مجمل الإشكاليات التي حاول كل من فانون وماركيوز أن يعالجاها في سياق نظرية كل حسب مستجدات محيطه وواقعه الاجتماعي واستنتج في الأخير أن هناك تقاربا في الإشكاليات .

ففانون تساءل عن كيفية قيام الثورة في المجتمعات المتخلفة التي لا تملك القوة الكلاسيكية للثورة أي البروليتاريا ومع ذلك مسّرة على القيام بهذا العمل التغييري.

أما ماركيوز فتساءل عن"أسباب تعذر الثورة في المجتمع الصناعي الأوربي الذي بات يملك القوة الكلاسيكية للثورة منذ أكثر من قرن ومع ذلك بقيت الثورة مستبعدة،بل ومستحيلة في الوقت الحالي".[5]

إذن من خلال مقارنتنا لهذه الإشكاليات التي حاول كل من فانون وماركيوز أن يحللاها من أجل صياغة قانون تاريخي يمكن أن نقول أن نقطة بداية ماركيوز وفانون واحدة وهي محاولة لتجديد الماركسية في القرن العشرين.

جوهر مساهمة فانون تكمن في أنه جعل الطبقة الفلاحة طبقة قائدة للثورة في المستعمرات، فالثورة في البلدان الإفريقية هي ثورة زراعية ضد الكولونيالية أي أنها:ثورة تحرر واستقلال وطني أي تحويل لعلاقات الإنتاج في الريف بمعنى استرجاع الأراضي من المعمرين ،لذا أسند فانون دور التحرر الوطني إلى طبقة الفلاحين التي فقدت أراضيها بمجرد خضوعها للسلطة الاستعمارية، ولكن الطبقة الفلاحة إذا ما أعدنا النظر في رؤية فانون يستحيل أن تقود الطليعة إذا أردنا ضمان الاستمرارية والنجاح لهذه الثورة .

أما جوهر مساهمة ماركيوز فيكمن في أنه حاول أن يدرس أسباب تعذر الثورة في المجتمع الصناعي الحديث رغم أن الفرد في هذا المجتمع يعاني من القمع المفرط la surrepression فالفرد في المجتمع التكنوقراطي الحديث أصبح يخضع لقمع ذي طبيعة عقلانية ظاهريا لأن هذا المجتمع ينفرد عن غيره من المجتمعات باستخدامه للتكنولوجيا عوض العنف ،فهذه الميتافيزيقا الجديدة استطاعت حسب ماركيوز أن تحقق ما لم تحققه الأنظمة التوتاليتارية القديمة، حيث قلمت أظافر أصحاب المعارضة مسبقا وهذا بإيهامهم بتحقيق الرفاهية والسعادة للجميع واستطاعت الإيديولوجية التكنولوجية أن تحقق هذا المسعى نظرا للإمكانيات المادية الضخمة التي توفرها للفرد .

إن الجهاز الصناعي الحديث حسب ماركيوز لم يسّد فقط الندرة، بل أصبح يخلق حاجيات جديدة مما جعل الإنسان مجرد متلق وفقد الإنسان في ظل هذه الإيديولوجيا بعد النقد وحساسية الرفض ليسود بعد الامتثال والخضوع .

من خلال هذا العرض القصير لآراء فانون وماركيوز حول الوضع الذي آل إليه الإنسان سواء في المجتمع المتقدم أو المتخلف نتساءل: **هل بإمكان إعادة تأسيس تاريخ الإنسان بالنسبة للمجتمعات الإفريقية المتخلفة والمجتمعات الغربية المتطورة؟ هل يمكن أن نتحدث عن ميلاد إنسان جديد؟دعا فانون إلى ضرورة ميلاد إنسان إفريقي جديد كما أسر ماركيوز على ضرورة ميلاد إنسان غربي جديد ،فكيف يمكن إذن بعث هذا الإنسان الجديد؟ ماهي طبيعة البنية الأخلاقية السيكولوجية التي تسيّر عقلية هذا الإنسان الجديد؟ وهل يمكن أن نتصور وجود توافق بين المفهومين الغربي و الإفريقي عن الإنسان؟**

1/الإنسان الجديد بين فرانز فانون و هربرت مارميوز:

أ/الإنسان الغربي و السيطرة التكنولوجية:

تكمن أهمية فرانز فانون وهربرت ماركيوز في أنهما حاولا أن يبحثا عن هذا الإنسان الجديد الذي يمكن أن تنطبق عليه كل صفات الإنسانية، ليس هذا الإنسان الذي فقد بعد النقد وحساسية الرفض والثورة على الأوضاع السائدة وليس هذا الإنسان المنحط، الخامل والامتثالي وهو المفهوم الجاهز الذي قدمته الحضارة الغربية للإنسان الإفريقي.

يرى ماركيوز أن الخطوة الأولى التي سلكها الإنسان نحو التحرر من قيود الطبيعة هي "العمل" ويمثل هذا الأخير شرطا أساسيا لرفع الإنسان من مرحلة الإنسان الحيوان إلى مرحلة الإنسان المنضبط وكان هذا خطوة أساسية لتشييد الحضارة،فالندرة التي اكتنفت الطبيعة أجبرت الإنسان على التخلي عن جزء من ذاتيته وهو الطاقة اللبيدية من أجل ضمان استمرار النوع البشري. ولكن "العمل" إذا كان في المرحلة الأولى عاملا أساسيا لتشييد الحضارة ووسيلة للتحرر من قيود الطبيعة سيصبح في مرحلة متطورة أداة للسيطرة والطغيان،إذ أصبح الفرد يجد نفسه مقحما في دوامة من النشاطات التي لاتتوافق مع قدراته وملكاته العقلية والجسدية وفي إطار التغلب على مصاعب الطبيعة طور الإنسان جهوده وكثفها إلى أن ابتكر مختلف التكنولوجيات ويجب أن نفهم أن التكنولوجيا هي: "علم تحويل الأشياء الطبيعية إلى أدوات مروضة من أجل استخدامها لخدمة مصالح اجتماعية ..."[6] يعني هذا أن التكنولوجيا تقوم على منطق السيطرة لأن الإنسان أوجد التقنية من أجل إخضاع الطبيعة لإرادته ويسخر مواردها لخدمة أغراضه

الخاصة،ولما بلغ التطور التكنولوجي أشده كان لابد أن ينقلب السحر على الساحر إذ تحولت التكنولوجيا من مجرد أداة في متناول يد الإنسان إلى أداة للسيطرة عليه وقمعه.

إن التكنولوجيا في العصر الحديث تمارس قمعا كليا على الفرد،وهذا القمع يتم باسم العقل ولأول مرة في التاريخ يصبح القمع مقبولا،بل ويدافع عنه ضحاياه حسب قول ماركيوز.

وحدث هذا نتيجة الإمكانات الضخمة التي يوفرها المجتمع الصناعي المتقدم بجهازه الإنتاجي الذي لم يتخلص فقط من الندرة التي يشكو منها الفرد،بل وحقق وفرة في الإنتاج وخلق له حاجيات جديدة، الشيء الذي مكّنه من توطيد الصلة بينه و بين الجماهير التي لا ترى فيه إلا نظاما جديرا على تلبية الحاجيات،دونالنفاذ إلى اللاعقلنة المتخفية وراء ستار عقلنته المسيطرة.

أثبت ماركيوز أن المجتمع الصناعي الحديث استطاع أن يضمن الرفاهية والحياة الرغيدة لعدد هائل من الأفراد،لذا بقي الإنسان ملجوما،غاب عنه بعد الرفض والنفي إذ كيف يثور الإنسان على هذا النظام الذي يحقق له حياة أسعد ويثبت جدارته باستمرار،فالثورة في مثل هذا الوضع لامعقولةّ !

لكن ما هو ملاحظ اليوم أن التكنولوجيا لا تحدد فقط علاقة الفرد بالطبيعة،بل أصبحت تحدد حتى علاقات الأفراد بغيرهم،بل وعلاقة الدول بغيرها مما أدى إلى ظهور ثنائية الدول المستعِرة والمستعمَرة،والسيطرة التي تمارسها الأولى على الثانية من خلال إخضاع مجتمعاتها وتعذيبها وتجريدها من ماهيتها، يقول ماركيوز في ذلك: "...إن التدمير والكدح ضروريان كشرط مسبق للتسلية والفرح.."[7]، وفي هذا الإطار يتدخل منظر الثورة الإفريقية "فانون" للدفاع عن ماهية الإنسان المستعمَر من خلال كشف الستار عن خفايا العنف والانطواء على الذات وعلى الهوية والموروث الثقافي.

ب/الإنسان الإفريقي و السيطرة الاستعمارية:

تعد ظاهرة الانطواء على الذات من أهم الإجراءات التي اتخذها الإنسان الإفريقي الخاضع كرد فعل عن السياسة الاستعمارية حسب فانون و يعبر هذا الإجراء عن فهم الإنسان الإفريقي لظاهرة الاستلاب وللعلاقة الكامنة بين الأسباب المادية ومظاهره الثقافية والنفسية. هذا الفكر الذي تولد لدى الإنسان الإفريقي المستلب سيساهم في إرساء وعي سياسي جديد جدير على إدخال تغيير جذري وبعث ذات تاريخية جديدة. وحسب منظر الثورة الإفريقية هذه الذات تكون قادرة على كسر البنية السيكولوجية الاجتماعية التي تولد ثقافة الخوف وتعيد إنتاج مناخ الاستلاب والاغتراب لدى الإنسان الإفريقي.

لعل هذه المقاربة تبدو قريبة من التحليل الماركيوزي للمجتمع الصناعي المعاصر.

بالنسبة لفانون وماركيوز الذات التاريخية الجديدة لا تتكلم بلغة النظام المتسلط ولا تمتثل لقراراته أيضا، فما هي إذن اللغة الجديدة الجديرة بمعارضة النظام الصناعي القمعي وما هو الإنسان المخالف لإنسان مجتمع الوفرة والتبذير عند ماركيوز؟ هذا من جهة ومن جهة أخرى نتساءل عن طبيعة اللغة التي من شأنها أن تخلق تحديا للخطاب الإيديولوجي الاستعماري عند فانون؟ هذا الخطاب الذي ألحق كل صفات الدناءة والانحطاط بالشعوب المستعمَرة.

يلخص ماركيوز هذه اللغة في مختلف الفنون التشكيلية، الآداب والموسيقى وفي التقاليد الشعبية واللغة الزنجية ولغات الأعراق المهمّشة والمضطهدة. ويقول ماركيوز بهذا الخصوص إن: "...الموسيقى السوداء صراخ العبيد وسكان الفيتو وعناءهم فهذه الموسيقى تُحيِي من جديد حياة رجال ونساء السود وموتاهم، إنها جسد. والشكل الجمالي فيها هو حركة الألم والضنك والاتهام..."[8]. ولجأ ماركيوز إلى الفن كإيديولوجية الطعن في الإيديولوجية القائمة، باعتبار الثورة الثقافية أسبق من الثورة السياسية والاقتصادية وهذا يعني أن الوعي الإيديولوجي أسبق من التطور الاجتماعي،وإذا قارنا هذا مع فانون نجد أن منظر الثورة الإفريقية يؤكد على أن الثورة في المستعمرات تبدأ أولا بنقض القيم السائدة أي: نقض تلك الصفات والقيم الأخلاقية الدنيئة وكل التصورات الخاطئة التي اختلقها المستعمِر للمستعمَر والأبيض للأسود لكي يحبط ذهنه ويشل نشاطه الفكري، فالصراع هو صراع نفسي سيكولوجي وعملية المقاومة بالنسبة للإنسان الأسود تكمن في: "نقض وجوده الفيزيائي...نقض كونه فكرة في عقل الإنسان الأبيض ..."[9] أي: على المستعمر أن يقوم بنقض ذلك المفهوم المشوه الذيألحقته الحضارة الغربية للإنسان الإفريقي:تلك الشعوب المتوحشة التي لا تمتّ بصلة للإنسانية.إن فانون يؤمن بأن الاستعمار هو استعمار نفسي سيكولوجي والتحرر يقتضي وجود إرادة قوية وواعية بظروف عبوديتها ومن ثمة تغييرها تغييرا جذريا كما يقتضي وجود لغة تنفذ إلى أعمق أعماق الأطروحات وهذه اللغة التي من شأنها تحرير الوعي وإيقاظ روح المقاومة لدى الشعوب المستتبعة تتجلى في اللغة الوطنية أو لغة القبائل،لذا نجد الساسة يستعينون في خطاباتهم ببعض الألفاظ والعبارات المستوحاة من اللغات الأصلية فهذه اللغات حسب فانون: "...تغذّي الحلم وتسمح للخيال بالطواف خارج النظام الاستعماري..."[10]، ويسرد فانون بعض الأمثلة منها "نحن الزنوج، نحن العرب" هذه العبارات المثقلة بالمعنى السلبي الاحتقاري تتلقى لدى أصحابها كل التقدير والاحترام وتبعث فيهم روح الانتقام والثورة على الأوضاع السائدة فبالنسبة لفانون هذا العالم المزروع بكل أنواع القمع والمنع لا يمكن تغييره إلا بالعنف "...محو الاستعمار لا يمكن

أن يعبر عبورا دون أن يلاحظه أحد، لأنة يتناول الوجود،لأنه يغير الوجود تغييرا أساسيا يحول متفرجين مسحوقين يعانون من فقدان الماهية إلى عناصر فعالة متميزة تدخل تيار التاريخ دخولا رائعا ...إن محو الاستعمار يبث في الوجود إيقاعا خاصا يجيء به الرجال الجدد، ويحمل إلى الوجود لغة خاصة وإنسانية جديدة... ولكن هذا الخلق لا يستمد مشروعيته من أية قوة فوق الطبيعة، إن المستعمر(الشيء)يصبح إنسانا في خضم العملية التي يحرر بها نفسه."[11].

هذه التصريحات ذات المعنى المثقل التي استعملها فانون تبين جيدا أن التحرر هو تحرر من الأوهام، هو أولا "كسر للبنية السيكولوجية التي تولد ثقافة الخوف من الآخر والنزوع إلى الامتثال لأوامره. ويتفق فانون في رؤيته هذه مع ماركيوز لأنه يرى أن الحل الوحيد لاسترجاع الإنسان الغربيلكرامته الضائعة و لحريته المستلبة يكمن في ذلك التغيير الجذري في البنية السيكولوجية للمجتمع الصناعي،فإذا نجحنا في تغيير هذه البنية استطعنا تحقيق تلك الأنسنة المفقودة نتيجة التوجيه المنحرف للصناعة، يمكننا بناء مجتمع يرتكز على الانطلاق و التطور التام للإنسان.

فالذات التاريخية الجديدة التي حاول ماركيوز أن يؤسس لها تعطي الأولوية لعوامل الحياة على عوامل الموت والتدمير. لذا نصل إلى نتيجة مفادها أن مشروع ماركيوز هو مشروع حضارة غير قمعية،أين يتحرر الإنسان الغربي من كل القيود.

لكن إذا كان ماركيوز يدعو إلى ميلاد إنسان غربي جديد يتمتع بحريته التامة فهل يعني أن الصراع الذي خاضه الإنسان الإفريقي من أجل ضمان بقائه واستمراريته سيكلفه حياة بائسة؟ ولقد أعدنا هذا الطرح لسبب واحد هو أن ماركيوز أوضح جيدا أن "التدمير والكدح ضروريان كشرط مسبق للتسلية والفرح..."[12] مما يعني أن الانطلاق التام للإنسان الغربي قام على الاستغلال والقمع المضاعف للإنسان الإفريقي الذي كان موضوع دراسة فانون.

أكد منظر الثورة الإفريقية من خلال كل كتاباته أن الاستعمار هو آلة لإنتاج العنف ولابد أن يقابل بعنف أقوى أو يوازيه وعملية التحرر هي إذن صراع حاسم يتم عن طريقه استرجاع الهوية المستلبة للإنسان الإفريقي، هو صراع يشمل كل المستويات وتشارك فيه كل الفئات، ذلك أن المستعمر يتبنى برنامجا أخطبوطيا يسعى من خلاله إلى تفكيك و فسخ كل أشكال الوجود الخاصة بالإنسان الإفريقي.

ج /السفور بين الخضوع والخنوع:

عالج فانون في كتابه "العام الخامس من الثورة الجزائرية قضية "الحايك" الذي يعبّر عن إحدى مقومات المرأة الجزائرية، إذ أصبحت المرأة محورا هاما من محاور برنامج التدمير الثقافي الذي يعمل على

مبدأ معروف: "لنكسب النساء والباقي سيأتي فيما بعد..."[13]، فالحايك التقليدي "هو الذي يخلق الهوة الفاصلة بين المرأة الجزائرية والمرأة الأروبية يقول فانون: "...إخفاء الوجه هو إخفاء السر، هو محاولة لخلق عالم الغموض... وكل حجاب (حايك) مهجور، وكل جسم يتحرر من وثاق" الحايك" التقليدي يدّل على أن الجزائري راض بوضع نفسه في مدرسة السيد وأنه راض بتغيير عاداته بإشراف إدارة المستعمر..."[14] ، إلا أن فانون يعود ويؤكد أن البرنامج التدميري الذي يقوم على ترويض المرأة الجزائرية لم يفلح لأن المشاريع التي تبناها المحتل هي التي تحدد في النهاية مراكز المقاومة التي تنتظم حولها إرادة المقاومة لدى الإنسان المغترب، فالمرأة الجزائرية ارتدت "الحايك" عندما كان عليها أن تعبر عن اختلافها عن المرأة الأروبية وهجرته عندما انخرطت في صفوف الجبهة التحررية نظرا للمسؤولية الملقاة على عاتقها. ما هو ملاحظ هنا هو أن: سفور المرأة الجزائرية لم يأت استجابة لقوة خارجية ،بل كان عليها أن تتصرف حسب مقتضيات الضرورة وفي وقت لاحق سيظهر خطر سفور المرأة الجزائرية متمثلا في الاتصالات التي تجريها بين جهات مختلفة من الجبهة المقاومة فهي تقوم بنقل الرسائل والقنابل وتتنقل سافرة في الشوارع الأروبية كي لا تلفت أنظار السلطات الفرنسية وبعد ملاحقتها، تعود المرأة الجزائرية إلى ارتداء الحايك ليصبح مرة أخرى كوسيلة لإخفاء سّر "الجسم الجزائري" ووسيلة لإخفاء الأسلحة تحت هذا الغطاء. وهذا ما أكده فانون في الفصل المعنون: "الجزائر تلقي الحجاب" أين استنتج أن إرادة القوة (العنف الاستعماري) هي التي تنظم وتحدد مراكز إرادة البقاء واستمرار الحياة لدى المستعمَر.

د/الذات الإفريقية الجديدة:

من دراسة ظاهرة الانطواء على الذات و"ظاهرة الحايك" التقليدي ،ينتقل فانون إلى دراسة ظاهرة "اليأس" ويسميها بنقطة اللاعودة أي عدم الالتفات إلى الوراء إما "موت " وإما خلق جديديقول فانون: "...المستعمر يرى الآن أن الحياة لا يمكن أن تعود إلى الانبثاق إلا من جثة المستعمِر حين يصبح المستعمِر جثة متفسخة..."[15]

لقد أصبح العنف مبررا لدى فانون، بل يكتسي صبغة إيجابية ويُدخل المستعمَر مرحلة التكوين، أي تكوين وعي الوحدة المتراصة (الوحدة الوطنية) التي لا تقبل الانفصال

والتقسيم وهذه الأخيرة حسب فانون يمكن أن تؤسس التاريخ الجديد بالنسبة للإنسان الإفريقي، ليس التاريخ المزعوم الذي يقوم على تسييج واعتقال الآخر في صور دونية ساخرة، بل التاريخ الذي صنعه الإنسان الإفريقي بعقله وقلبه وحسه وعاطفته وعمله وواقعه البشري. فعملية التحرر بالنسبة لفانون هي نفي للعنصرية لصالح تحقيق المساواة "...تحرير الوطن الجزائري هو إجلاء (هدم)للعنصرية

واستغلال الإنسان، هو بداية لإرساء العدالة اللامشروطة..." [16]والعدالة التي يعنيها فانون وراء هذا القول هي زوال عقدة النقص لدى الإنسان الإفريقي الذي مازال ينزع إلى الخوف والرضوخ للآخر ،هذا من جهة ومن جهة أخرى تخلّص الإنسان الغربي من وهم التفوق على الآخر، فلابد أن يدرك كلا العالمين أن الطبيعة لم تخلق عبيدا ولا أسيادا، وإنما سلطة الخيال هي التي وقفت ضد سلطة الواقع والرغبة في الهدم والتحطيم كثيرا ما تكون شرط الإبداع الخلاق كما أثبت ذلك باكونين ميكائيل BAKOUNINE MICHEIL، فثورة الإفريقي هي إرادة الحياة وهي تعبير عن ميلاد إنسان جديد ومجتمع جديد. يقول فانون في خاتمة كتابه الأخير"معذبو الأرض"... نحن لا نتذرعبحجة اللحاق بالإنسان الغربي فنزعزع الإنسان وننتزعهمنذاته، من صميمه، ونحطمه ونقتله،نحن لا نريد اللحاق بأحد ولكن نريد أن نمشيفي صحبة الإنسان،في صحبة جميع البشر (...) على العالم الثالث أن يستأنف تاريخا للإنسان يحسب حساب النظريات التي جاءت بها أروباوكانت في بعض الأحيان رائعة،ولكنه ينبغي أن يتجنب الجرائم التي قامت بها أروبا في نفس الوقت وأبشع هذه الجرائم أنها شتّتت وظائف الإنسان تشتيتا مرضيا وفتتت وحدته، كما أوجدت في المجتمع تحطما وتكسرا وتوترات دامية تغذيها طبقات،كما أوجدت على مستوى الإنسانية أحقادا عرقية واستعبادا واستغلالا، بل ومجزرة نازفة تمثلت في نبذ مليار ونصف مليار من البشر (...) ومن أجل الإنسانية علينا أن نلبس جلدا جديدا، أن ننشئ فكرا جديدا، أن نحاول خلق إنسان جديد."[17]

فالإنسان الذي يؤسس له فانون من خلال كل كتاباته هو ذلك الإنسان الذي يسعى إلى إثبات وجوده عن طريق ذلك الصراع الجدلي، صراع لا يهدف إلى سحق الآخر، بل هو صراع من أجل ميلاد عالم الاعتراف المتبادل. هل استطاع ماركيوز وفانون أن يسوقا هذا الإنسان الجديد إلى الوجود أم بقي مجرد تنظير لا أكثر؟

إن استقراء التاريخ الإفريقي أثبت أن الإنسان الإفريقي استطاع فعلا أن يجبر الإنسان الغربي على الاعتراف بوجوده وهذا من خلال العنف الثوري الذي قاده إلى استرجاع حريته المغتصبة، إذ رأينا بلدان العالم الثالث تحقق استقلالها الواحدة تلو الأخرى، ولكن تراجع الاستعمار التقليدي فتح المجال لغزو جديد يتجلى في خطر العولمة و مشروعها الإيديولوجي الذي يعمل على تغييب الآخر من قلب المشروع الحضاري أي عودة الإنسان الغربي إلى عنصريته بتمجيد تاريخه وفرض نسق قيمه الأخلاقية على الشعوب الأخرى في حين أكد فانون أنّ اكتشاف الإنسان الجديد الذي يمكن أن تنطبق عليه كل صفات الإنسانية

سيتحقق عن طريق "عملية التثاقف التي تقوم على الاعتراف المسبق بنسبية الفوارق بين مختلف الثقافات، وعندما يزاح نهائيا نظام السيطرة بين العالمين"[18] أي الشرط المسبق لبعث هذا الإنسان الجديد إلى الوجود سواء الغربي منه أو الإفريقي يتجلى في ابتعاد الطرفين عن الطرق اللاإنسانية التي سلكها أسلافهما أي: أن يتحرر الإنسان الغربي من عقدة التفوق التي جعلت منه مركز الكون كما ينبغي أن يتحرر الإنسان الإفريقي من عقدة النقص والنزوع إلى الرضوخ للأخر.

لعل تجربة فانون في مجال التحليل النفسي مكنته من تشخيص أزمة الإنسان الغربي والإفريقي على السواء، فكلاهما يعاني من سلطة الخيال التي هي أقوى من سلطة الواقع.

الهوامش :

1- de Philippe Lucas ,Sociologie de FRANTZ FANON ,contribution à une anthropologie la liberation,(SNED ,1971), P22 .

2- فرانز فانون،معذبو الأرض تر:د. سامي الدروبي و د.جمال الأتاسي، مراجعة د.عبدالقادر بوزيدة،(ط1، دار الفارابي – بيروت – لبنان ،2004)،ص116.

3- فرانز فانون،المصدر السابق،ص27.

2- قلق في الحضارة، تر:جورج طرابيشي،(ط1،دار الطليعة بيروتلبنان،1988)،ص105 سيقموند فرويد،

هربرت ماركيوز،الإنسان ذو البعد الواحد،تر:جورج طرابيشي، (ط4،دار الآداب –بيروت– لبنان1984)،ص106-

4- هربرت ماركيوز،الإنسان ذو البعد الواحد،مصدر سبق ذكره،ص118-

5- هربرت ماركيوز،الإنسان ذو البعد الواحد، مصدر سبق،ص183

6- Herbert Mercuse, Vers la libération au-delà de l'homme unidimensionnel, tr :Jean Baptiste,Grasset ,(ed,Minuit-Paris- France,1969),p37

7- frantz fanon,peau noire masques blancs, ed paris,seuil,1952,p34.

8- فرانز فانون،معذبو الأرض،مصدر سبق ذكره،ص62

9- المصدر نفسه،ص26- 27

10- هربرت ماركيوز، الإنسان ذوالبعد الواحد، مصدر سبق،ص183

11- Frantz Fanon, L'an v de la révolution algérienne, (ed La Découverte ,PARIS,2001) ,p18 .

12- IBID ,PP24-25

13- فرانز فانون، معذبو الأرض،مصدر سبق ذكره،ص91

14- Frantz Fanon ,Pour la révolution africaine ,(Ed La Découverte ,PARIS ,2006) ,P71

15- فرانزفانون،معذبو الأرض، ص357.

16- فرانز فانون، معذبو الأرض، ص16.

قائمة المصادر والمراجع :

المصادر:

باللغة العربية:

- فانون فرانز، معذبو الأرض تر:د. سامي الدروبي و د.جمال الأتاسي، مراجعة د.عبد القادر بوزيدة، ط1، دار الفارابي – بيروت – لبنان

- ماركيوزهربرت، الإنسان ذو البعد الواحد، تر: جورج طرابيشي، (ط4، دار الآداب بيروت – لبنان1984).

باللغة الأجنبية:

FRANTZ FANON

1-Peau Noire Masques Blancs,Ed1,PARIS, Seuil,1952.

2-L'an v de la révolution algérienne, Ed, La Découverte, PARIS, 2001.

3-Pour la révolution africaine, Ed La Découverte, PARIS, 2006.

Herbert Mercuse,

1-Vers la libération au-delà de l'homme unidimensionnel, tr :Jean Baptiste,Grasset, Ed,Minuit-Paris- France,1969 .

2-Eros et civilisation, contribution à FREUD,1er ed :trG .MENYET G.FRANK, Minuit France, 1963

المراجع

باللغة العربية.

. فرويد سيجموند، قلق في الحضارة، تر:جورج طرابيشي،ط1، دار الطليعة . بيروت . لبنان، 1988.

باللغة الأجنبية.

- Lucas Philippe,Sociologie de FRANTZ FANON ,contribution à une anthropologie de la liberation,(SNED ,1971), P22 .